موجز في تفسير
سورةُ النَّازعات

سليمان بيضون

*** السورة التاسعة والسبعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «النّبأ».**

*** سُمّيت بـ «النازعات» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾.**

*** آياتها ستّ وأربعون، وهي مكيّة، مَنْ قرأها لم يكن حبْسه وحسابه يومَ القيامة إلّا كقدر صلاة مكتوبة** [أي قصير المدّة] **حتّى يدخل الجنّة، كما في الحديث النبويّ الشريف.**

*** ما يلي موجز في التعريف بالسورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين) للشيخ عبد علي الحويزي ﵀، و(الميزان) للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي ﵀، و(الأمثل) للمرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.**

«شعائر»

جاء في موسوعة (التحقيق في كلمات القرآن الكريم): الأصل الواحد في المادّة (نزع) هو جذبُ شيءٍ وقلْعُه من محلّه، كما أنّ القلْع عبارة عن نزع شيء من أصله بحيث لا يبقى منه باقٍ. ومن مصاديقه نزْع السلطان عامله عن محلّه ومقامه، ونزْع المريض عن الحياة وإشرافه على الموت. والنزوع عن الأمر بتركه والإعراض عنه. والأنزع وهو الذي انحسر وسقط الشعر من مقدّم رأسه فوق الجبهة، وبلحاظ هذا الأصل تستعمل الصيغ من المادّة في معاني قريبة منه.

محتوى السورة

في السورة إخبار مؤكّد بوقوع البعث والقيامة، واحتجاج عليه من طريق التدبير الربوبي المنتِج أنّ النّاس سينقسمون يومئذٍ طائفتين: أصحاب الجنّة وأصحاب الجحيم.

وتختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبيَّ صلّى الله عليه وآله، عن وقت قيام الساعة والجواب عنه. وتتلخّص مواضيعها عموماً بستّة أقسام:

١) التأكيد مراراً على مسألة المعاد وتحقّقه الحتمي.

٢) الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.

٣) عرض سريع لقصّة موسى عليه السلام مع الطاغي فرعون، تسليةً للنّبيّ صلّى الله عليه وآله والمؤمنين، وإنذاراً للمشركين الطغاة، وإشارةً إلى ما يترتّب على إنكار المعاد من سقوط في مستنقع الرذيلة.

٤) طرح بعض النماذج لمظاهر قدرة الباري سبحانه في السماء والأرض، للاستدلال على إمكان المعاد والحياة بعد الموت.

٥) تعود الآيات مرة أخرى، لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، وما سيصيب الطغاة من عقاب وما سينال الصالحون من ثواب.

٦) وفي النهاية، يأتي على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة، والتأكيد على حتميّة وقوعه وقربه.

ثواب تلاوتها

*** عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «مَن قَرأ سُورةَ (وَالنَّازِعَاتِ) لَمْ يَكُن حَبْسُهُ وحِسابُهُ يومَ القيامةِ إلّا كَقَدرِ صلاةٍ مكتوبةٍ حتّى يَدخلَ الجنّة».**

*** وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مَنْ قَرَأها لَمْ يَمُت إلّا رَيَّان، وَلَمْ يَبعثْهُ اللهُ إلّا ريّان، ولَمْ يُدخِلْهُ الجَنّةَ إلّا رَيّان».**

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الآية:٢٤.

*** النبيّ صلّى الله عليه وآله: «قَالَ جَبْرَئِيلُ: قُلْتُ: يَا رَبِّ، تَدَعُ فِرْعَوْنَ وَقَدْ قَالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؟ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا مِثْلُكَ؛ مَنْ يَخَافُ الفَوْتَ».**

*** الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ**

سَبْعَةُ نَفَرٍ، أَوَّلُهُمُ ابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ... وَفِرْعَونُ الَّذِي قَالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾».

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ الآية:٣٠.

الإمام الباقر عليه السلام لأبي حمزة الثمالي، وقد سأله عن المسجد الحرام: لأَيِّ شَيْءٍ سَمَّاه الله الْعَتِيقَ؟

قال عليه السلام: «إِنَّه لَيْسَ مِنْ بَيْتٍ وَضَعَه الله عَلَى وَجْه الأَرْضِ إِلَّا لَه رَبٌّ وسُكَّانٌ يَسْكُنُونَه، غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّه لَا رَبَّ لَه إِلَّا الله عَزَّ وجَلَّ، وهُوَ الْحُرُّ».

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ خَلَقَه قَبْلَ الأَرْضِ، ثُمَّ خَلَقَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِه فَدَحَاهَا مِنْ تَحْتِه».

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ الآية:٣١.

الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى لَمَّا أَهْبَطَ آدَمَ إِلَى الأَرْضِ وكَانَتِ السَّمَاوَاتُ رَتْقاً لَا تَمْطُرُ شَيْئاً، وكَانَتِ الأَرْضُ رَتْقاً لَا تُنْبِتُ شَيْئاً، فَلَمَّا أَنْ تَابَ الله عَزَّ وجَلَّ عَلَى آدَمَ أَمَرَ السَّمَاءَ فَتَقَطَّرَتْ بِالْغَمَامِ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَأَرْخَتْ عَزَالِيَهَا، ثُمَّ أَمَرَ الأَرْضَ فَأَنْبَتَتِ الأَشْجَارَ وأَثْمَرَتِ الثِّمَارَ وتَفَهَّقَتْ بِالأَنْهَارِ، فَكَانَ ذَلِكَ رَتْقَهَا وهَذَا فَتْقَهَا..».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ الآية:٣٤.

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله، أنّه قال: «كَفَى بِالْمَوتِ طَامَّةً...».

* عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يَا عِبَادَ اللهِ! مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ أَشَدُّ مِنَ الْمَوتِ. الْقَبْرَ! فَاحْذَرُوا ضِيْقَهُ وَضَنْكَهُ وَظُلْمَتَهُ وَغُرْبَتَهُ».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ الآية:٣٧.

أمير المؤمنين عليه السلام: «ومَنْ طَغَى ضَلَّ على عَملٍ بِلا حُجّة».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ الآيتان:٤٠-٤١.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الْهَوَى وطُولَ الأَمَلِ؛ أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّه يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ».

* الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ عَلِمَ أَنَّ الله يَرَاه ويَسْمَعُ مَا يَقُولُ، ويَعْلَمُ مَا يَعْمَلُه مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيَحْجُزُه ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الأَعْمَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي خَافَ مَقَامَ رَبِّه ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى».

* وعنه عليه السلام: «لَا تَدَعِ النَّفْسَ وهَوَاهَا، فَإِنَّ هَوَاهَا فِي رَدَاهَا، وتَرْكُ النَّفْسِ ومَا تَهْوَى أَذَاهَا، وكَفُّ النَّفْسِ عَمَّا تَهْوَى دَوَاهَا».

الأقسام في بداية السورة

جاء القسم القرآني بخمسة أشياء مهمّة لتبيان حقيقة وحتمية تحقّق يوم القيامة، وهي التالية مع شرحها اللغوي:

١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: أي: أُقسم بالتي تجذب الشيء عن مقرّه بقوّة.

٢) ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾: أقسم بالتي تتحرّك بيُسرٍ وسهولة.

٣) ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: أقسم بالتي تتحرّك بسرعة.

٤) ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾: أقسم بالمتقدّمات بالسير.

٥) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾: أقسم بالتي تقوم بالأعمال على أحسن وجه.

أمّا المقصود بالتي تحمل هذه المواصفات فلم تصرّح الآيات بذلك، وللمفسّرين آراء فيها أقربها لأهداف السورة أنّ المقصود هم الملائكة، فيكون المعنى كالتالي:

أقسم بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفّار والمجرمين حيث تنزعها من أجسادهم بشدّة، وبالملائكة الموكّلة بقبض أرواح المؤمنين برفقٍ ويُسر وسرعة في إتمام الأمر، وبالملائكة التي تسرع في تنفيذ الأوامر الإلهية، ثمّ الملائكة التي تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهية. وأخيراً أقسم بالملائكة التي تدبّر شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

(تفسير الأمثل)

الجهاد الّذي أمر به القرآن الكريم

التأسيس لقواعد القتال

العلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

أشار القرآن الكريم في ستّ آيات من سورة البقرة (١٩٠ إلى ١٩٥) إلى أسباب مشروعية القتال وغاياته وآدابه وزمنه. وهي آيات نزلت لمّا صدّ المشركون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، والمسلمين عن البيت الحرام في السنة السادسة من الهجرة.

العلامة الطباطبائي يكتب في هذا المجال بحثاً قيّماً بعنوان «الجهاد الذي أمَر به القرآن»، نورده في ما يلي كما جاء في الجزء الثاني من عمله المعروف بـ (تفسير الميزان)، وبتصرّفٍ يسيرٍ منّا.

«شعائر»

كان القرآن يأمر المسلمين بالكفّ عن القتال والصبر على كلّ أذى في سبيل الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الكافرون:٦.

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ..﴾ المزمل:١٠.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ..﴾ النساء:٧٧.

ثمّ نزلت آيات القتال، فمنها آيات القتال مع مشركي مكّة ومَن معهم بالخصوص، كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ..﴾ الحج:٣٩-٤٠.

ومن الممكن أن تكون هذه الآية نزلت في الدفاع الذي أُمر به في بدر وغيرها، وكذا قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الأنفال:٣٩-٤٠.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة:١٩٠.

ومنها آيات القتال مع أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ التوبة:٢٩.

ومنها آيات القتال مع المشركين عامّة، وهم غيرُ أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿..فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ..﴾ التوبة:٥، وقوله تعالى: ﴿.. وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ..﴾ التوبة:٣٦. ومنها ما يأمر بقتال مطلق الكفّار كقوله تعالى: ﴿..قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ..﴾ التوبة:١٢٣.

صيانة التوحيد

وجملة الأمر، أنّ القرآن يذكّر أنّ الإسلام ودين التوحيد مبنيّ على أساس الفطرة، وهو القيّم على إصلاح الإنسانية في حياتها، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم:٣٠.

فإقامته والتحفّظ عليه أهمّ حقوق الإنسانية المشروعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ..﴾ الشورى:١٣.

ثمّ يذكر أنّ الدفاع عن هذا الحقّ الفطري المشروع حقّ آخر فطري، قال تعالى: ﴿..وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج:٤٠. فبيّن أنّ قيام دين التوحيد على ساقه وحياة ذكره منوط بالدفاع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿..وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ..﴾ البقرة:٢٥١.

وقال تعالى في ضمن آيات القتال من سورة الأنفال: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ الأنفال:٨.

ثمّ قال تعالى بعد عدّة آيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾ الأنفال:٢٤، فسمّى الجهاد والقتال الذي يُدعى له المؤمنون محيياً لهم، ومعناه: أنّ القتال سواء كان بعنوان الدفاع عن المسلمين، أو عن بيضة الإسلام، أو كان قتالاً ابتدائياً، كلّ ذلك بالحقيقة دفاع عن حقّ الإنسانية في حياتها، ففي الشرك بالله سبحانه هلاكُ الإنسانية وموت الفطرة، وفي القتال – وهو دفاع عن حقّها – إعادة لحياتها وإحيائها بعد الموت.

ومن هناك يَستشعر الفطِن اللبيب أنّه ينبغي أن يكون للإسلام حكمٌ دفاعيّ في تطهير الأرض من لوث مطلق الشرك، وإخلاص الإيمان لله سبحانه وتعالى، فإنّ هذا القتال الذي تذكره الآيات إنّما هو لإماتة الشرك الظاهر من الوثنيّة، أو لإعلاء كلمة الحقّ على كلمة أهل الكتاب بحملهم على إعطاء الجزية، مع أنّ آية القتال معهم تتضمّن أنّهم لا يؤمنون بالله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ، فهم وإن كانوا على التوحيد، لكنّهم مشركون بالحقيقة مستبطنون ذلك، والدفاع عن حقّ الإنسانية الفطري يوجب حملهم على الدين الحقّ.

سيادة الدين الإلهي بالجهاد

والقرآن الكريم وإن لم يشتمل من هذا الحكم على أمرٍ صريح، لكنّه يبوح بالوعد بيومٍ للمؤمنين على أعدائهم لا يتمّ أمره إلّا بإنجاز الأمر بهذه المرتبة من القتال، وهو القتال لإقامة الإخلاص في التوحيد، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ الصف:٩.

وأظهرُ منه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الأنبياء:١٠٥.

وأصرح منه قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ..﴾ النور:٥٥، فقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ يعني به عبادة الإخلاص بحقيقة الإيمان، فهذا ما وعده تعالى من تصفية الأرض وتخليتها للمؤمنين، يوم لا يُعبد فيه غير الله حقّاً.

وربّما يتوهّم المتوهّم أنّ ذلك وعد بنصر إلهي بمصلح غيبيّ من غير توسّل بالأسباب الظاهرة، لكن ينافيه قوله: ﴿..لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾، فإنّ الاستخلاف إنّما هو بذهاب بعض وإزالتهم عن مكانهم ووضع آخرين مقامهم، ففيه إيماء إلى القتال، على أنّ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ..﴾ المائدة:٥٤، يشير إلى دعوة حقّة، ونهضة دينية ستقع عن أمرٍ إلهي، ويؤيّد أنّ هذه الواقعة الموعودة إنّما تقع عن دعوة جهاد.

الدفاع عن مفهوم التوحيد؛ بنشره بين الناس وحِفظه من الضياع، حقّ مشروع للإنسانية يجب استيفاؤه بأيّ وسيلة ممكنة

دفاع عن حقّ الفطرة

وبما مرّ من البيان يظهر الجواب عمّا ربّما يورَد على الإسلام في تشريعه الجهادَ بأنّه خروج عن طور النهضات الدينية المأثورة عن الأنبياء السالفين، فإنّ دينهم إنّما كان يعتمد في سَيره وتقدّمه على الدعوة والهداية، دون الإكراه على الإيمان بالقتال المستتبع للقتل والسبي والغارات، ولذلك ربمّا سمّاه بعضهم - كالمبلّغين من النصارى - بـ«دين السيف والدم»، وآخرون بـ«دين الإجبار والإكراه»!

لكنّ القرآن يبيّن أنّ الإسلام مبنيّ على قضاء الفطرة الإنسانية، التي لا ينبغي أن يُرتاب أنّ كمال الإنسان في حياته هو ما قضت به وحكمت ودعت إليه، وهي تقضي بأنّ التوحيد هو الأساس الذي يجب بناء القوانين الفردية والاجتماعية عليه، وأنّ الدفاع عن هذا الأصل بنشره بين الناس وحفظه من الهلاك والفساد، حقّ مشروع للإنسانية يجب استيفاؤه بأيّ وسيلة ممكنة، وقد رُوعي في ذلك طريق الاعتدال، فبدأ بالدعوة المجرّدة والصبر على الأذى في جنب الله، ثمّ الدفاع عن بيضة الإسلام ونفوس المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ثمّ القتال الابتدائي الذي هو دفاع عن حقّ الإنسانية وكلمة التوحيد، ولم يبدأ بشيءٍ من القتال إلّا بعد إتمام الحجّة بالدعوة الحسنة كما جرت عليه السنّة النبويّة، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ..﴾ النحل:١٢٥، والآية مطلقة.

وقال تعالى: ﴿..لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ..﴾ الأنفال:٤٢.

وأمّا ما ذكروه من استلزامه الإكراه عند الغلبة، فلا ضير فيه بعد توقّف إحياء الإنسانية على تحميل الحقّ المشروع على عدّةٍ من الأفراد بعد البيان وإقامة الحجّة البالغة عليهم، وهذه طريقة دائرة بين الملل والدول، فإنّ المتمرّد المتخلّف عن القوانين المدنية يُدعى إلى تبعيّتها ثمّ يُحمل عليه بأيّ وسيلة أمكنت ولو انجرّ إلى القتال، حتّى يطيع وينقاد طوعاً أو كرهاً. على أنّ الكره إنّما يعيش ويدوم في طبقة واحدة من النسل، ثمّ التعليم والتربية الدينيّان يُصلحان الطبقات الآتية بإنشائها على الدين الفطري وكلمة التوحيد طوعاً.

الجهاد سنة الانبياء عليهم السلام

وأمّا ما ذكروه أنّ سائر الأنبياء جرَوا على مجرّد الدعوة والهداية فقط، فالتاريخ الموجود من حياتهم يدلّ على عدم اتّساع نطاقهم بحيث يجوز لهم القيام بالقتال، كنوحٍ وهودٍ وصالح عليهم السلام، فقد كان أحاط بهم القهر والسلطنة من كلّ جانب، وكذلك كان عيسى عليه السلام أيّام إقامته بين الناس واشتغاله بالدعوة، وإنّما انتشرت دعوته وقُبلت حجّته في زمان طروّ النسخ على شريعته وكان ذلك أيّام طلوع الإسلام. على أنّ جمعاً من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله تعالى كما تقصّه التوراة، والقرآن يذكر طرفاً منه، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٦-١٤٧.

وقال تعالى - يقصّ دعوة موسى قومه إلى قتال العمالقة: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ..﴾ المائدة:٢٠، إلى أن قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ المائدة:٢١، إلى أن قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ المائدة:٢٤.

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾ البقرة:٢٤٦، إلى آخر قصّة طالوت وجالوت.

وقال تعالى في قصة سليمان وملكة سبأ: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ النمل:٣١، إلى أن قال تعالى: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ النمل:٣٧، ولم يكن هذا الذي كان يهدّدهم بها بقوله: ﴿..فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم..﴾ إلّا قتالاً ابتدائياً عن دعوة ابتدائية.